متاح رقمياً

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

احتكار المعرفة والهيمنة الأكاديمية
(دراسة تحليلية نقدية لسياسات الإقصاء والتبعية في أنظمة النشر والتصنيف العالمي)

د. سيف ضياء

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

احتكار المعرفة والهيمنة الأكاديمية
(دراسة تحليلية نقدية لسياسات الإقصاء والتبعية في أنظمة النشر والتصنيف العالمي)

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط / قسم الابحاث / الدراسات الاجتماعية

الاصدار / ورقة بحثية

الموضوع / السياسة الداخلية والخارجية، التعليم والمجتمع

د. سيف ضياء/ باحث

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2025

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org
Since 2014

توطئة:

تتموضع البنى المؤسسية التعليمية والممارسات الأكاديمية في قلب منظومة الهيمنة الثقافية العالمية، متجاوزة وظيفتها الظاهرة المعلنة المتمثلة في إنتاج المعرفة ونقلها وتطويرها لتؤدي دوراً محورياً في تكريس التفاوتات العالمية وتعميق الفجوات المعرفية بين الشمال والجنوب، مما يُنتج مايمكن تسميته بـ (العنف الرمزي- Symbolic Violation)[*1] الذي يضفي شرعية على اللامساواة المعرفية تحت غطاء خطابات تبدو محايدة ظاهرياً كـ(الجودة الأكاديمية، التميز البحثي، والمعايير العالمية)، تعمل هذه المنظومة المؤسسية من خلال آليات متعددة المستويات، تبدأ من تحديد ما هو معرفي مشروع، مروراً بضبط منهجيات إنتاجه، وانتهاءً بتحديد قنوات توزيعه واستهلاكه. وتتجلى خطورة هذه الآليات في قدرتها على الاختفاء وراء ستار من الحيادية والموضوعية، مما يجعل استمرارية هيمنة الشمال بأبعادها المختلفة أمراً طبيعياً لا يخضع إلى المساءلة أو النقد. لذا، يتطلب فهم ديناميات الهيمنة المعرفية تفكيك البُنى المؤسسية التي تعيد إنتاجها كـ «الجامعات»، «مراكز البحث العلمي»، «المجلات الأكاديمية»، و «مؤسسات التمويل البحثي». هذه المؤسسات لا تعكس فقط التفاوتات القائمة، بل تسهم بفعالية في تشكيلها وتعميقها، عبر سياسات التصنيف العالمي، ومعايير النشر الأكاديمي، وشروط الاعتراف بالشهادات العلمية. والأخطر في هذه المنظومة هو أنها تولِد استلاباً معرفياً لدى الباحثين والمؤسسات في دول الجنوب، حيث يتبنون طواعية الأطر النظرية والمنهجية والموضوعية المنتجة في الشمال، متخلين عن السياقات المحلية والخصوصيات، في سعيهم لتحقيق عالمية مزعومة تُعزز في الواقع علاقات التبعية واستدامة الهيمنة بأشكالها المتنوعة. وفي ضوء هذه المعطيات، تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء واستكشاف المنظومات المؤسسية للهيمنة على المعرفة والممارسات الأكاديمية في العصر الرقمي. وكما يأتي:

1- (*) **العنف الرمزي – Symbolic Violation**: تُعدّ مفهوماً سوسيولوجياً مستحدثاً بالغ الأهمية، يشير إلى ممارسة الهيمنة عبر فرض الفاعلين المسيطرين أنماطهم الخاصة في (التفكير ،التعبير ،التصور)، بحيث تتماهى هذه الأنماط مع مصالحهم وتخدم أهدافهم؛ يعمل هذا العنف بصور خفية ومستترة عبر منظومات (قيمية ،وجدانية ،أخلاقية وثقافية)، تستخدم الرموز والأدوات الرمزية (اللغة، الصورة، الإشارة، الدلالة، والمعنى) ، وكذلك وسائل للسيطرة الناعمة والتوجيه غير المباشر لسلوكيات الأفراد والجماعات، ويمتاز هذا النمط بكونه عنفاً هادئاً، مستتراً، وغير ملموس، بحيث يتغلغل في البنى الاجتماعية على نحو يجعل ضحاياه في الغالب غير واعين لوجوده أو لآثاره العميقة على وعيهم وإدراكهم، **للمزيد ينظر** :

Pierre Bourdieu: Responses to Reflexive Anthropology, (Paris: Le Seuil, 1992), pp. 146-147.

المحور الأول

سياسات احتكار المعرفة وإقصاء المنظومات البديلة

تتأسّس المنظومةُ المعرفيةُ العالميةُ المهيمِنةُ على مركزيةٍ متجذّرةٍ لعالم الشمال، مُرسِّخةً تراتبيّةً صارمةً بين أنماط المعرفة، تُعلي من شأن منتَجِها العلمي، وتُهمِّش في المقابل المنظوماتِ المعرفيةَ في دول الجنوب العالمي. وتتجلّى هذه الفجوة المعرفية من خلال مؤشراتٍ إحصائية دقيقة تعكس عمق الاختلال البنيوي في المشهد الأكاديمي العالمي؛ فوفقاً لتقرير اليونسكو للعلوم، تستحوذ خمسُ دولٍ غربية فقط على نحو 63% من براءات الاختراع العالمية، في حين تتقاسم 137 دولة نامية أقل من 9 % منها، وهو ما يُجسِّد احتكاراً هيكلياً لإنتاج المعرفة التقنية والابتكار. وتتمظهر آليات الهيمنة المعرفية عبر منظومة متكاملة من الممارسات المؤسسية والإجراءات التنظيمية:

1- الإقصاء المنهجي للمعارف المحلية:

تُقصى المعارف المحلية من دوائر الشرعية الأكاديمية، وتُوصم بأنها أدنى مرتبة في سُلَّم تطوّر المعرفة البشرية، مُشكّلةً ما يمكن أن يُطلق عليه (الإبادة المعرفية-Cognitive Exclusion) *

إذ تكشف بيانات الاستشهادات الأكاديمية في مجالات العلوم الاجتماعية خلال المدة (2010–2020) أن نحو 89 % من الاستشهادات المرجعية في الدوريات المصنفة عالمياً تُحيل إلى أعمال باحثين من أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية،[2] بينما لا تتجاوز نسبة الاستشهاد بأعمال باحثين من أفريقيا والشرق الأوسط 3 %، على الرغم من أنهم يمثلون ما يقارب 22% تقريباً من سكان العالم.[3]

2- احتكار معايير الصلاحية العلمية وأدوات التحقق المنهجي:

تُفرض المناهج والمقاربات الغربية كمعيار وحيد للعلمية والموضوعية، مُولّدةً ما يمكن تسميته بـ "خط التفكير الأبيستمي - Epistemic Line of Thinking"، الذي يفصل بين ما يُعدّ معرفةً مشروعةً وما يُنفى إلى خانة اللامعرفة. وقد وثّق المسحُ الميداني الموسّع الذي أجراه المجلس العربي للعلوم الاجتماعية ظاهرة الاغتراب الموضوعاتي لدى الباحثين العرب، إذ يضطر نحو 67 %

2- محمد الموقيت: شبكات الاستشهادات المرجعية في العلوم الاجتماعية، دراسة تحليلية 0102-0202، (الرباط: المعهد المغربي للدراسات الاستراتيجية 2202)، ص 97-48.

3- تقرير مؤشر المعرفة العالمي 2202، (الامارات العربية المتحدة: مؤسسة محمد بن راشد ال مكتوم، 2202)، ص 911.

منهم إلى تكييف موضوعات أبحاثهم ومقارباتهم النظرية لتتلاءم مع اهتمامات المجلات الغربية، حتى في الحالات التي لا تعكس فيها هذه الموضوعات أولويات التنمية المحلية الملحّة لمجتمعاتهم.[4]

3- الهيمنة اللغوية كآلية استلاب ثقافي وإقصاء معرفي:

تُمثّل الهيمنة اللغوية للإنجليزية ولغات أوروبية محدودة كحوامل معرفية في المجال الأكاديمي آليةً فعّالة للإقصاء المعرفي المنهجي. إذ تكشف الدراسات أن نحو 94 % من المقالات والبحوث المصنفة في قاعدة بيانات Scopus منشورة باللغة الإنجليزية، مقابل 2.1 % بالفرنسية، و1.2 % بالألمانية، و0.7% بالإسبانية، ونسبة لا تتجاوز 0.1 % للمنشورات باللغة العربية وغيرها من لغات الجنوب العالمي.[5] ويُقدّم تقرير "اللغة والإقصاء الأكاديمي" تحليلاً دقيقاً للآليات التي تحول دون وصول المعرفة المنتجة بلغات غير غربية إلى دوائر الاعتراف الأكاديمي العالمي، إذ يُظهر التقرير أن نحو 87% من المجلات العلمية المصنفة ضمن الفئة الأولى عالمياً لا تقبل النشر إلا باللغة الإنجليزية حصراً، وأن 93% من المؤتمرات الأكاديمية ذات التصنيف العالي لا تعتمد غير الإنجليزية لغةً رسمية.[6] وتُشكّل هذه الظواهر ما يمكن وصفه بـ "آليات الإقصاء المنهجي اللغوي"، بمعنى حرمان المعرفة المنتجة بلغات غير أوروبية من فرص متكافئة للظهور والتأثير العالمي، ما يجعلها تتحول من مجرد عائق تقني إلى منظومة هيكلية تُكرّس تهميش إنتاج معرفي كامل، وتَحول دون تداوله عالمياً، مهما بلغت قيمته الإبستمولوجية أو أهميته التطبيقية.

4- هدى الصدة: التقرير الرابع للعلوم الاجتماعية في العالم العربي، العلوم الانسانية في العالم العربي في اوقات الصراع والتغير، (بيروت: المجلس العربي للعلوم الاجتماعية ،4202)، ص 01-41.

5- هيديو تسودا: الهيمنة اللغوية في المجال الاكاديمي العالمي، ترجمة: سعيد العليمي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 7102) ص241.

6- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: تقرير اللغة والاستبعاد الأكاديمي، دراسة ميدانية، (تونس: مطبعة المنظمة للتربية والثقافة والعلوم، 3202)، ص 481-781.

المحور الثاني

أنظمة التصنيف الأكاديمي، آليات للإقصاء واستدامة التبعية

تُمثل منظومة التصنيفات الأكاديمية العالمية بمكوناتها المتعددة من (تصنيفات الجامعات، معاملات تأثير المجلات، ومؤشرات الاقتباس) أداة محورية في ترسيخ الهيمنة المعرفية الغربية وتكريس التبعية البنيوية لمؤسسات الجنوب العالمي تحت غطاء التميز الأكاديمي، [7] وتتجلى آليات عمل هذه المنظومة من خلال ثلاث مسارات رئيسة:

1- مأسسة معايير التميز على وفق نموذج الشمال العالمي:

تعكس معايير التصنيفات الأكاديمية في جوهرها، البُنى المؤسسية والموارد المتاحة في الجامعات الغربية، متجاهلة السياقات (التاريخية ، الاجتماعية ،والاقتصادية) المتباينة التي تعمل ضمنها مؤسسات الجنوب العالمي[8]، ويتجلى هذا التحيز البنيوي بوضوح في تصنيف شنغهاي[9*] الأكاديمي، إذ تستحوذ جامعات أمريكا الشمالية وأوروبا وأستراليا على نحو 93 % تقريباً من المراكز المئة الأولى عالمياً، بينما لا تتجاوز نسبة تمثيل جامعات الجنوب العالمي 7% فقط، على الرغم من أنها تُشكل أكثر من 70 % من إجمالي الجامعات حول العالم[10]، إذ تعمل هذه المنظومة كـ(آليات انضباط معياري) تدفع المؤسسات الأكاديمية في الجنوب نحو محاكاة النموذج الغربي، حتى حين يتعارض ذلك مع الأولويات التنموية المحلية

7- بو افينتورا دي سوزا سانتوس: لماذا إبستيمولوجيات الجنوب؟ مسارات بديعة لآفاق مبتكرة، ترجمة: جواد الحبوش، (برلين: المركز الديمقراطي العربي، المجلة العربية لعلم الترجمة، المجلد 3، العدد8، 4202)، ص312.

8- A Decade of Research Ranking Universities: Strengths, Weaknesses and Challenges, (Eds: Liu, Nian Cai, Ying Cheng, and Li Liu, Higher Education Press, 1102), p.38.

9- (*) تصنيف شنغهاي : أحد أبرز التصنيفات الأكاديمية الدولية وأكثرها تأثيراً في المشهد الأكاديمي العالمي، إذ يتميز هذا التصنيف بمنهجيته الصارمة التي تعتمد على مؤشرات موضوعية وبيانات ببليومترية عالية الجودة لقياس الأداء البحثي والأكاديمي للمؤسسات التعليمية ، يستند تصنيف شنغهاي إلى معايير محددة تشمل (جودة الإنتاج العلمي ،البحثي للجامعة،الاستشهادات المرجعية بأبحاثها، والجوائز العالمية التي حصل عليها أعضاء هيئة التدريس والخريجون)، يقيم التصنيف الجامعات بناءً على مجموعة من المعايير الكمية المتعلقة بالإنتاج العلمي وتأثيره الأكاديمي على المستوى العالمي.للمزيد ينظر :

Liu, Nian Cai, and Yi Liu, (2005) "University Rankings in China in the World Context: An Introduction to Academic-Ranking-of-World-Universities," Higher Education in Europe, Vol. 30, No. 2, pp. 217-227.

10- Shanghai Ranking Consultancy, (2024) Methodology of Academic Ranking of World Universities 2024, (Shanghai: Shanghai Ranking Consultancy), p. 25.

والاحتياجات المجتمعية الملحة؛ وبهذا تتحول التصنيفات من أدوات قياس محايدة إلى منظومة قيمية تفرض نمطاً واحداً للتميز، مستبعدة النماذج البديلة التي قد تكون أكثر ملاءمةً للسياقات المختلفة.

2- تكريس الهرمية المعرفية العالمية:

تُؤسّس منظومة التصنيفات الأكاديمية لهرمية معرفية عالمية تُموضع المؤسسات الأنجلو-أمريكية في قمة الهرم، مما يُعزز الحلقة المفرغة لما يُسمى بالتميّز الأكاديمي. في هذه الحلقة، يتعاظم تفوّق المؤسسات المهيمنة بفعل آليات القياس ذاتها؛ إذ تكشف الدراسات النقدية أن نحو 83% من المؤشرات المستخدمة في التصنيفات الدولية تعكس قيماً وممارسات أنجلو-أمريكية محددة .وتتمثّل هذه المؤشرات في معايير كمية مثل: نسبة النشر في مجلات مدرجة ضمن قواعد بيانات معينة، ومعدلات الاستشهاد وفق آليات محددة، وعدد الجوائز العلمية المرموقة مثل نوبل والميداليات العلمية، والتي تخضع بدورها لمنطق توزيع القوة العالمي ذاته .وبذلك، تتحوّل هذه المؤشرات من أدوات قياس إلى آليات لإعادة إنتاج علاقات الهيمنة، مُرسِّخةً الوضع الراهن بدلاً من تشجيع التنوع المعرفي والتعددية المنهجية.

3- الجامعات المستنسخة وظاهرة الاغتراب المؤسسي:

مع تزايد انتشار فروع الجامعات الغربية ونماذج (الجامعات العالمية) في بلدان الجنوب، تبلورت ظاهرة استنساخ المؤسسات الأكاديمية التي تتبنى الأنموذج الغربي بصورة شبه كاملة، متجاهلة خصوصيات السياقات المحلية ومتطلباتها، وتمثل هذه الظاهرة تجسيداً للاغتراب المؤسسي الذي يفصل الجامعات عن محيطها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي[11]، تبرز هذه الظاهرة بوضوح في العالم العربي، حيث أشارت دراسة موسعة إلى تحول مؤسسات التعليم العالي إلى مختبرات لتفريخ النخب المعولمة التي تتبنى الأطر المفاهيمية والمنهجية الغربية على الرغم من انفصالها عن السياقات المحلية، وقد كشفت البيانات المسحية لـ 1,740 أكاديمياً عربياً أنَّ 71 % منهم يعتمدون على مناهج دراسية مستوردة بالكامل، وأنَّ 82% من المراجع المعتمدة في برامج الدراسات العليا في 17 جامعة عربية مرموقة هي مراجع غربية مترجمة أو بلغتها الأصلية،[12] ينعكس هذا النمط الاستنساخي في تعميق الاغتراب المعرفي والثقافي لدى النخب المتعلمة، مما يوسع الفجوة بينها وبين قضايا مجتمعاتها ويعزز اندماجها في منظومة القيم الغربية، مشكلاً بذلك حلقة إضافية في سلسلة التبعية البنيوية التي تعيق إمكانية بلورة نماذج معرفية بديلة تنطلق من الخصوصيات المحلية وتستجيب للتحديات التنموية الملحة.

11- محمد عابد الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، (الدوحة: مركز دراسات الوحدة العربية، 9102)، ص 241.

12- المجلس العربي للعلوم الاجتماعية: تقرير المرصد العام عن حالة العلوم الاجتماعية في العالم العربي، (بيروت: المجلس العربي للعلوم الاجتماعية، 3202)، ص، 74-94.

المحور الثالث

سياسات احتكار النشر الأكاديمي وبرامج الشراكة: أدوات لإدامة التبعية البنيوية في دول الجنوب

تُعدّ سياسات الهيمنة المعرفية إحدى الركائز الأساسية لمنظومة التبعية المستحدثة التي تواجهها دول الجنوب العالمي، إذ تُجسِّد السيطرة على إنتاج المعرفة وتداولها آليةً محوريةً في إعادة إنتاج علاقات القوة غير المتكافئة على المستوى العالمي .لذلك، يتناول هذا المطلب تحليلاً نقدياً معمقاً لمحورين أساسيين من محاور الهيمنة المعرفية: صناعة النشر الأكاديمي بما تمثّله من احتكار للمعرفة وتسليعها، فضلاً عن برامج الشراكة الأكاديمية التي توظف التمويل كأداة لتوجيه البحث العلمي وفق أجندات محددة .وتكمن أهمية هذا التحليل والتفكيك في كشفه للعلاقة العضوية بين إنتاج المعرفة وبُنى الهيمنة العالمية، إذ يُظهر كيف تتحول المؤسسات الأكاديمية والبحثية إلى فضاءات لترسيخ التبعية، من خلال فرض معايير ومنهجيات وأولويات بحثية تعكس في جوهرها مصالح القوى المهيمنة في الشمال العالمي .إنَّ فهم هذه الآليات المعقّدة يُعدّ مدخلاً ضرورياً لاستكشاف إمكانات بناء منظومات معرفية بديلة تستجيب للاحتياجات التنموية الحقيقية لدول الجنوب، وتُسهم في تحقيق **سيادتها المعرفية** كشرطٍ أساسيٍّ لتجاوز علاقات التبعية البنيوية في مختلف المجالات التنموية.

1. صناعة النشر الأكاديمي: احتكار المعرفة واستدامة التبعية

تُمثّل منظومة النشر الأكاديمي العالمي ركيزةً أساسيةً في تكريس الهيمنة المعرفية للشمال العالمي، إذ تتركّز فيها سلطة تحديد ما يُعدّ معرفةً مشروعةً وجديرةً بالتداول العلمي. وتتّسم هذه المنظومة بخصائص هيكلية وبنيوية تعمل على إدامة علاقات التبعية المعرفية وتعميق الفجوات بين مراكز إنتاج المعرفة وأطرافها، من خلال مجموعة من الآليات والخصائص، من أبرزها:

أ. الاحتكار الرأسمالي للمعرفة الأكاديمية

تتجلى هيمنة الشمال العالمي بصورة جلية في بنية صناعة النشر الأكاديمي الدولية، إذ تستحوذ خمس شركات نشر عملاقة (Elsevier، Springer Nature، Wiley، Taylor & Francis، SAGE) على ما يقارب 65 % من المجلات العلمية المدرجة في قواعد بيانات الدولية (Web of Science ، Scopaus)، بإيرادات سنوية تتجاوز 19 مليار دولار أمريكي،[13]

13- Larsen, Vincent F. Thesis Writing: A Guide to Planning, Research, and Publication. 2nd ed. Boston: Northeast Publishing House, 2018. p. 83.

ويُظهر هذا الاحتكار تحوّل المعرفة الأكاديمية إلى سلعة خاضعة لمنطق الربح الرأسمالي، في أحد أكثر الأشكال المعاصرة للهيمنة الثقافية، حيث يُعاد توجيه الإنتاج المعرفي للعلماء والباحثين — والممول غالباً من المال العام — ليصبح سلعةً محتكرةً تدر أرباحاً ضخمة على شركات متعددة الجنسيات، بدلاً من أن يُعاد استثماره في خدمة المجتمع العلمي والمعرفي.

ب. تسليع المعرفة وجغرافيا الوصول إليها

يؤدي ترسيخ الأنموذج التجاري للنشر العلمي إلى تحويل المعرفة الأكاديمية إلى سلعة باهظة الثمن؛ إذ تبلغ تكلفة الاشتراك السنوي في حزمة من المجلات العلمية المتخصصة نحو 62,500 دولار أمريكي، وهي كلفة تعادل ميزانية البحث العلمي لكليةٍ كاملة في العديد من جامعات دول الجنوب العالمي. وتشير البيانات إلى أن نحو 78% من المؤسسات الأكاديمية في إفريقيا وجنوب آسيا لا تستطيع الاشتراك في أكثر من 10% فقط من المجلات العلمية الرصينة،[14] تُنتج هذه الوضعية ما يمكن وصفه بـ «فجوة الوصول المعرفي»، والتي تُعمّق الفجوة بين مؤسسات البحث العلمي في الشمال والجنوب، وتُكرّس علاقات التبعية المعرفية. وعلى الرغم من بروز حركة الوصول المفتوح (Open Access) كمبادرة لكسر احتكار المعرفة، فإن الأنموذج السائد حالياً، القائم على نظام «الدفع للنشر" (Article Processing Charges)، أعاد إنتاج آليات الإقصاء بصورة مختلفة؛ إذ تتراوح تكلفة نشر المقال الواحد ما بين 3,000 إلى 5,000 دولار أمريكي، وهي مبالغ تتجاوز بكثير الإمكانات المالية لمعظم الباحثين في مجتمعات عالم الجنوب.[15]

ج. المركزية الجغرافية لبوابات المعرفة المشروعة

تعكس البنية الإدارية للمجلات العلمية المرموقة تمركزاً جغرافياً حاداً، إذ أظهر تحليل لهيئات تحرير 500 مجلة علمية مصنفة ضمن الربع الأول عالمياً في تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية أن اكثر 91 % من رؤساء التحرير ينتمون لمؤسسات أكاديمية غربية، وأنَّ 87% تقريباً من أعضاء الهيئات

14- eeL sahS ot nahS .la te :.Sneaming Academic Knowledge A Political Economy of Open Access, (Journal of Scholarly Publishing, U of Toronto Press, Vol. 43, No. 2, 2012), p. 245.

15- Rodríguez-Bravo, Blanca, and Emilio Delgado López-Cózar. "Publishing Power and Geographic Concentration in Social Sciences and Humanities Journals." Journal of Scholarly Publishing, vol. 43, no. 3, 2012, pp. 245–258. University of Toronto Press, doi:10.3138/jsp.43.3.245.

الاستشارية يتبعون لجامعات في أمريكا الشمالية وأوروبا،[16] يمثل هذا الواقع ما يمكن توصيفه بـ «الاحتكار الجغرافي لبوابات المعرفة المشروعة»، وهو احتكار يُفضي إلى فرض منظومة قيم ومعايير غربية على عمليات إنتاج المعرفة وتداولها. ونتيجة لذلك، تؤدي هذه الهيمنة إلى إقصاء منهجي للمعارف والنظريات التي تنشأ خارج المركز الغربي، وتحويلها إلى معارف محلية تُجرَّد من قابليتها للتعميم والاعتراف العالمي.

د. الاغتراب المزدوج والتهميش المعرفي

يتجلى واقع التبعية الأكاديمية في ظاهرة الاغتراب المزدوج التي يعاني منها الباحثون في دول الجنوب العالمي، إذ يجدون أنفسهم مدفوعين نحو تبني أجندات بحثية وأطر نظرية مستوردة تستجيب بالأساس لاهتمامات المؤسسات الأكاديمية الغربية المهيمنة وجمهورها المستهدف،[17] تؤدي هذه الديناميكية إلى إحداث انفصال معرفي بين الباحث وواقعه المحلي، مما يدفعه نحو الانخراط في إشكاليات بحثية قد تكون منبتّة الصلة بالسياقات والتحديات الملحّة التي تواجهها مجتمعاته، الأمر الذي يعمق ظاهرة (الاستلاب الثقافي)[18*] والتبعية الفكرية، إذ تشير البيانات إلى أنَّ 74 % تقريباً من الأبحاث المنشورة من باحثين عرب في المجلات العلمية المرموقة تتناول موضوعات تندرج ضمن الأجندات البحثية الغربية، بينما لا تتجاوز

16- Noreena Hertz, The Silent Takeover: Global Capitalism and the Death of Democracy (London: William Heinemann, 2001), p. 65.

17- والتر ميغنولو: الانفكاك المعرفي: أسس نظرية لتفكيك الهيمنة الإبستيمولوجية الغربية، ترجمة: محمد الغربي، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر والتوزيع، 2012)، ص 711.

18- (*) الاستلاب الثقافي: يعرف بأنه العملية المنهجية التي تُفقد الذات الفردية والجماعية هويتها الأصيلة عبر آليات هيمنة ثقافية ممنهجة، إذ تتعرض الثقافات المحلية لتفكيك بنيوي واستبدال مرجعياتها بمنظومات قيمية وافدة؛ كما وتعد ظاهرة متعددة الأبعاد تتجلى في انسلاخ المجتمع عن جذوره الثقافية والانبهار بالنماذج المهيمنة، مما يؤدي إلى استدماج ذاتي للقيم والممارسات المستوردة دون وعي نقدي حقيقي، ويتجسد ذلك في ثلاثة مستويات متداخلة:

- المستوى المعرفي: يتجلى في فرض أنماط إبستمولوجية وإنتاج معرفي يعيد تشكيل الوعي الجمعي وفق رؤى مغايرة للسياق المحلي.
- المستوى القيمي: يظهر في الانقطاع عن المنظومة القيمية الأصيلة واستدخال منظومات بديلة تقدم كمعيار كوني للتقدم والحداثة.
- المستوى الممارساتي: يتجلى في تبني أنماط استهلاكية وسلوكية تتعارض مع الخصوصية الثقافية وتعزز التبعية.

تكمن خطورة هذه الظاهرة في اقترانها بالهيمنة الناعمة التي تعتمد أدوات جاذبة تجعل من المجتمعات المستلبة شريكة في إعادة إنتاج بنى الاستلاب وتوطينها؛ وفي سياق دول الجنوب العالمي، تتخذ هذه الظاهرة بعداً استراتيجياً يرتبط بإشكاليات التنمية غير المتكافئة والعلاقات العالمية اللامتوازنة؛ إذ إن فهم ديناميات الاستلاب الثقافي يشكل مدخلاً ضرورياً لتحليل معضلات التنمية المستقلة في دول الجنوب العالمي وإعادة التفكير في سبل بناء تنمية مستدامة تحترم الخصوصية الثقافية وتعزز السيادة المعرفية والقيمية. للمزيد ينظر: محمد الأمين بلغيث: البعد الثقافي في مواجهة الاستلاب الحضاري، (الجزائر: موسوعة الثقافة الجزائرية، ١٢٠٢)، ص٧٢١.

الأبحاث التي تعالج قضايا التنمية المستدامة المحلية الملحة نسبة 18% تقريباً من مجمل إنتاجهم العلمي.[19]

2. برامج الشراكة الأكاديمي، هندسة التبعية والهيمنة الناعمة عبر التمويل

تشكّل برامج التعاون الأكاديمي، مثل التمويل البحثي والمنح الأكاديمية، أداة مركزية في منظومة الهيمنة المعرفية العالمية. فهذه البرامج، التي تُقدَّم غالباً تحت شعارات براقة مثل «المساعدة الفنية»، و»نقل الخبرات»، و»بناء القدرات»، تُسهم في ترسيخ علاقات تبعية منهجية ونظرية للمؤسسات الأكاديمية في دول الجنوب العالمي. كما تعمل على توجيه الإنتاج المعرفي في تلك الدول ليتماشى مع أولويات المانحين في الشمال العالمي، من خلال ثلاث آليات رئيسة:

أ. فرض الأجندات البحثية والتوجيه المعرفي

تكشف الدراسات التحليلية للتدفقات المالية البحثية أن نحو 84 % من التمويل البحثي الخارجي الموجه لباحثي الجنوب العالمي ينصبّ على موضوعات محددة سلفاً تعكس اهتمامات الجهات المانحة الأوروبية والأمريكية .وتتركز هذه الموضوعات حول قضايا مثل: الإصلاح الديمقراطي، الإسلام السياسي، الإرهاب، وقضايا المرأة، وفق أطر مفاهيمية تخدم المصالح الجيوسياسية للمانحين، وليس بالضرورة الاحتياجات التنموية الملحة للمجتمعات المستهدفة،[20] وليس بالضرورة الاحتياجات التنموية الملحة للمجتمعات المستهدفة، وأنَّ هذا التوجيه المعرفي يعمل كآلية تأطير إستراتيجي تحدد ما هو جدير بالبحث وما هو مستبعد من دائرة الاهتمام البحثي المدعوم، مما يؤدي إلى تشكيل خارطة معرفية محكومة بمعايير خارجية.

ب. استنساخ النماذج المعرفية الغربية

تعمل مبادرات الشراكات الدولية، مثل الأفرع الجامعية الأجنبية والاتفاقيات الأكاديمية، كوسائل للتسويق الجيوثقافي. إذ توثق الدراسات أن نحو 67 % تقريباً من موازنات البحث العلمي تُخصص للتخصصات التي تحددها المؤسسات الغربية الشريكة. كما تشير البيانات إلى أن 73 % من أعضاء هيئة التدريس في تلك المؤسسات هم من خريجي الجامعات الغربية حصراً، مما يعزز دورة إعادة إنتاج النخب

19- نهى الحسيني: إشكاليات البحث العلمي العربي بين متطلبات النشر الدولي والاحتياجات المحلية، دراسة تحليلية لخمس جامعات عربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2202)، ص 141.

20- ابراهيم العيساوي: التمويل البحثي وإشكاليات التبعية المعرفية، دراسة تحليلية للتدفقات المالية البحثية في دول الجنوب العالمي، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 9102)، ص 87.

الأكاديمية المعولمة،[21] إذ أنَّ الإصرار على تطبيق المناهج والأطر النظرية الغربية دون مساءلة ملاءمتها للسياقات المحلية يمثل عملية استنساخ معرفي، تُعمق التبعية الفكرية وتقوض إمكانية تطوير نماذج نظرية مستمدة من الواقع المحلي.

ج. تهميش الخبرات المحلية وتحويل وظائف الباحثين

تكشف تحليلات جغرافيا التمويل البحثي العالمي أنَّ مؤسسات التمويل الغربية الكبرى مثل(-Rockefeller Founda- MacArthur Foundation , Ford Foundation tion,) تستثمر سنوياً أكثر من 85 مليون دولار تقريباً في برامج بحثية بالجنوب العالمي، وتشترط أكثر من 80 % من هذه المنح تبني أطر نظرية ومنهجية محددة ترتبط غالباً بأجندات التنمية المستدامة على وفق المنظور النيوليبرالي،[22] وهذا ما يهمش المعارف والخبرات وتحويل الباحثين المحليين إلى (جامعي بيانات) أو (وسطاء محليين) لمشاريع يتم تصميمها وتحليلها في مراكز البحث الغربية، مما يؤدي إلى توجيه الإنتاج المعرفي نحو توصيات سياساتية تتوافق مع توجهات المؤسسات المالية الدولية دون مراعاة خصوصيات أنساق القيم المحلية.

21- نقلًا عن: محمد الرماحي: استنساخ النماذج الاكاديمية، دراسة في اقتصاديات المعرفة والشراكات الجامعية الدولية في المنطقة العربية، (بيروت: الجمعية العربية للعلوم السياسية، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 27، 2020)، ص 213.

22- محمد العجاتي: جغرافيا التمويل البحثي العالمي، تحليل بنيوي للهيمنة المعرفية ومسارات التنمية المستدامة، (الرباط: المعهد العربي للدراسات التنموية، مجلة بحوث التنمية، المجلد 1، العدد 31، 2023) ص167.

الخاتمة:

تكمن خلاصة الموضوع في أن هذه الممارسات تؤسس لما يمكن وصفه بـ (الهيمنة المعرفة الجديدة)، التي تعمل على إعادة هيكلة وإنتاج المشهد المعرفي العالمي على وفق نمط يعزز هيمنة الشمال على البنى المعرفية والمؤسسية للجنوب، وتتجاوز هذه الهيمنة البعد الاقتصادي لتشمل السيطرة على آليات إنتاج المعرفة وتداولها وتقييمها، إذ تتحول الجامعات ومراكز البحث الأكاديمية في الجنوب إلى محطات طرفية لإنتاج معرفي يتم تصميمه وتوجيهه من الشمال، مما ينعكس على الخيارات التنموية المتاحة أمام مجتمعات الجنوب.

المقترحات:

بعد استكمال هذا المسار البحثي، تتوصل الدراسة في ختامها إلى مجموعة من المقترحات التي يمكن أن تُعدّ منارة إرشادية متواضعة لدول الجنوب العالمي، التي تكابد تأثيرات التبعية الهيكلية للشمال؛ تلك التبعية التي تقوّض مساعيها نحو تحقيق أهداف التنمية المستدامة (SDGs)، وتعوق انتقالها السياسي صوب الديمقراطية الناجزة والفاعلة، وذلك على النحو التالي:

1. العمل على إصلاح منظومات التعليم لتعزيز التفكير النقدي والإبداعي المبتكر، وربطها باحتياجات التنمية المستدامة.
2. زيادة الاستثمار في البحث العلمي والتطوير التكنولوجي الرقمي، مع التركيز على المجالات ذات الأولوية لإعمال أهداف التنمية المستدامة.
3. إنشاء وتطوير مراكز فكرية وبحثية متخصصة في دراسات التنمية المستدامة من منظور دول الجنوب العالمي، لتوطين المعرفة وتوليد نماذج تنموية أصيلة ومستقلة.
4. دعم حركات التوطين المعرفة، وإعادة الاعتبار للمعارف والخبرات المحلية المستقلة، ودمجها مع المعارف العلمية الحديثة.

المصادر

المصادر العربية

1. ابراهيم العيساوي: التمويل البحثي وإشكاليات التبعية المعرفية، دراسة تحليلية للتدفقات المالية البحثية في دول الجنوب العالمي، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 2019).
2. أحمد علي سالم: إسهامات غير غربية لتخليص حقل العلاقات الدولية من الهيمنة المعرفية الغربية: إصلاح أم ثورة ؟، (قطر: مركز ابن خلدون للعلوم الانسانية والاجتماعية، مجلة تجسير، المجلد 4، العدد 1، 2022).
3. بو افينتورا دي سوزا سانتوس: لماذا إبستيمولوجيات الجنوب؟ مسارات بديعة لآفاق مبتكرة، ترجمة: جواد الحبوش، (برلين: المركز الديمقراطي العربي، المجلة العربية لعلم الترجمة، المجلد 3، العدد8، 2024).
4. تقرير مؤشر المعرفة العالمي 2022، (الامارات العربية المتحدة: مؤسسة محمد بن راشد ال مكتوم، 2022).
5. عبد الرحمن عزي، وصالح خليل أبو أصبع: الهيمنة الرقمية وتحولات المشهد المعرفي: دراسة في آليات الاحتكار الجغرافي لبوابات المعرفة المشروعة، (مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية: المجلد 16، العدد 1، 2024).
6. المجلس العربي للعلوم الاجتماعية: تقرير المرصد العام عن حالة العلوم الاجتماعية في العالم العربي، (بيروت: المجلس العربي للعلوم الاجتماعية، 2023).
7. محمد الأمين بلغيث: البعد الثقافي في مواجهة الاستلاب الحضاري، (الجزائر: موسوعة الثقافة الجزائرية، 2021).
8. محمد الرماحي: استنساخ النماذج الأكاديمية، دراسة في اقتصاديات المعرفة والشراكات الجامعية الدولية في المنطقة العربية، (بيروت: الجمعية العربية للعلوم السياسية، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 27، 2020).

9. محمد العجاتي: جغرافيا التمويل البحثي العالمي، تحليل بنيوي للهيمنة المعرفية ومسارات التنمية المستدامة، (الرباط: المعهد العربي للدراسات التنموية، مجلة بحوث التنمية، المجلد 1، العدد 31، 2023).

10. محمد الموقيت: شبكات الاستشهادات المرجعية في العلوم الاجتماعية، دراسة تحليلية 2010–2020، (الرباط: المعهد المغربي للدراسات الاستراتيجية 2022).

11. محمد عابد الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، (الدوحة: مركز دراسات الوحدة العربية، 2019).

12. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: تقرير اللغة والاستبعاد الأكاديمي، دراسة ميدانية، (تونس: مطبعة المنظمة للتربية والثقافة والعلوم، 2023).

13. نهى الحسيني: إشكاليات البحث العلمي العربي بين متطلبات النشر الدولي والاحتياجات المحلية، دراسة تحليلية لخمس جامعات عربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2022).

14. هدى الصدة: التقرير الرابع للعلوم الاجتماعية في العالم العربي، العلوم الانسانية في العالم العربي في اوقات الصراع والتغير، (بيروت: المجلس العربي للعلوم الاجتماعية ،2024).

15. هيديو تسودا: الهيمنة اللغوية في المجال الاكاديمي العالمي، ترجمة: سعيد العليمي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2017).

16. والتر ميغنولو: الانفكاك المعرفي: أسس نظرية لتفكيك الهيمنة الإبستيمولوجية الغربية، ترجمة: محمد الغربي، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر والتوزيع، 2021).

المصادر الاجنبية

1. Andres Rauvargers: World University Rankings and Their Impact, (Brussels: European University Association, 2011), .p.83
2. Edmund Adam: The Impact of World University Rankings on Institutional Strategies, Decision-Making, and Policy Choices: A Case Study of Four Canadian Research Universities, (Canada: Ontario Institute for Studies in Education, University of (Toronto, 2021
3. Elena Rodriguez: Structural Barriers to the Open Access Model in the Global South: An Analysis of the Publication Fee System and Its Problems, (Amsterdam: International Journal of .(Information Studies, Vol. 2, No. 34, 2023
4. Francois Larue, John Phelps: The Big Five and Their Dominance of the Academic Publishing Market, A Data Analysis of 2010–2017, (USA: University of Chicago, Journal of Princi- .(ples of Knowledge, Vol. 2, No. 7, 2018
5. Lee Shan et al.: Measuring Access to Industry Fields: A Diverse Field Study of Academics Across Asia, (USA: Journal of Media .(Studies, Vol. 3, No. 42, 2021
6. Ling Wang, and Peter van der Werf: A Comparative Analysis of World University Rankings: Shanghai, THE, QS, (UK: Journal of Higher Education and Development, Oxford Uni- (versity Press 2021

7. Pierre Bourdieu: Responses to Reflexive Anthropology, (Paris: Le Seuil, 1992), pp. 146-147.

8. Raywen Connell, et al.: Geographical Dominance in the Editorial Boards of Prestigious Scientific Journals: A Quantitative and Qualitative Analysis (Paris: Journal of the Sociology of Knowledge, Vol. 1, No. 25, Seuil Editions, 2020).

9. Shanghai: Academic Ranking of World Universities 2024, (People's Republic of China: Shanghai Jiao Tong University, 2024).

10. UNESCO Science Report: The Race Against Time for Smarter Development (Paris: UNESCO Publications, document number: SC.2015/WS/, 2021)

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org